

أهمية دراسة النقوش العربية فى شبه القارة الهندية



بقلم : الدكتور محمد يوسف صديق



تعتبر شبه القارة الهندية من أقدم وأهم مراكز الحضارة والثقافة فى العالم .
وهى أيضا من أقدم البلاد التى سكنها الإنسان حيث عثر على هياكل بشرية
قديمة يرجع تاريخها الى ما قبل آلاف السنين^(١) ، كما وجد بها بعض أقدم
النقوش على الاحجار التى تمثل ارتقاء الحضارة الإنسانية المبكرة فى هذه البقعة
من الأرض .

فالرسوم المنقوشة على الصخور التى عثر عليها فى أطراف وادى سوهان
بمقاطعة كيبلفور فى الفنجاب وفى وادى گلگت الذى يقع بالقرب من الحدود
بين باكستان والصين تدل على سكنى هذه المناطق فى عهد جديد من الحضارة
فى الفترة التى ترجع الى ما قبل عشرة آلاف سنة^(٢) .

ونلاحظ فى بعض هذه الرسوم المنقوشة على الصخور فى وادى سوهان
أن سكان هذه المنطقة عرفوا استخدام بعض الحيوانات مثل الجاموس والبقر

(1) P. Boryskovsky, 'Traces of Fossil Ape-Men'. The Pakistan Times, Nov. 5 1974.

(2) J. M. Crawford, '30,000 Years Old Petroglyph'. The Pakistan Times, Sep. 10, 1972.

والفيل في الزراعة كوسيلة من وسائل النقل . ومن الجدير بالذكر أن صورة الحصان غير موجودة في هذه الرسوم وذلك لأن أهالي الهند لم يعرفوا الحصان إلا بعد ما جاء به الآريون خلال فتحهم لهذه البلاد .

ونعرف من هذه الأمثلة أن أهالي الهند كانوا مدركين أن النقوش والرسوم كانت من أقوى الوسائل للتعبير عن شعورهم وموہبتهم الفنية والتي كانت تبقى مصانة من التلف لمدة طويلة . ولم يبدأ الناس في استخدام الحروف للكتابة في تلك الفترة ، غير أننا نلاحظ في أن بعض هذه النقوش قد تشبه الهيروغليفية الى حد ما ، الأمر الذي يدل على اقتراب سكان هذه المناطق من استخدام الحروف في وقت غير بعيد من تلك الفترة .

ومن العسير جدا أن نعرف أقدم الخطوط أو الحروف في شبه القارة الهندية ، غير أن العثور على بعض الكتابات المنقوشة على الطين أو الحجر في المراكز الأثرية في هربا وموهنجودارو يدل على وجود استخدام الحروف في وادي السند منذ ما يقرب من خمسة آلاف سنة ، غير أن هذه الكتابات التي كتب باحدى اللغات الدرافيدية السائدة في تلك الفترة لم يتمكن أحد من قراءتها حتى الآن .

وإذا كانت هجمات الآريين على الدرافيديين قد أدت الى انهيار معظم مراكزهم الحضارية الثقافية القديمة ، فإن هذا الشعب الفاتح الجديد قد تمكن من إنشاء حضارة جديدة على أنقاض الحضارة الدرافيدية وروج الآريون في الهند الحروف الجديدة وهي الحروف السنسكريتية التي كانت أكثر تقدما من الخطوط السابقة .

واتخذ الآريون أيضا الرسوم والنحت كوسيلة رئيسية للتعبير عن شعورهم

وتسجيل أحداثهم ، فالرسوم والنقوش التي وجدت في كهوف اجانتا ، والورا وكاجوراهو ، وفي جزيرة الفاتتا^(١) تدل على مدى تطور فنون الرسوم في تلك العصور . ولم يقتصر الهنود على نقش الكتابات على الصخور والكهوف فقط ، بل عثر على كثير من اللوحات الكتابية الحجرية والبرونزية والنحاسية والخشبية فضلا عن أوراق شجرة النخيل (Palm leaves) التي ترجع إلى عصور ما قبل الاسلام^(٢).

وقد اشتهر الامبراطور أشوكا بتشديد الأعمدة التذكارية في شتى أماكن امبراطوريته في الهند التي كانت تكتب عليها النظم والنصائح الدينية والأخلاقية المستنبطة من الديانة البوذية . ولا تزال بعض هذه الأعمدة المنقوشة بالكتابات محفوظة في أماكن مختلفة في الهند . ويتضح من هذا كله أن أهالي الهند شعروا بأهمية النقوش الكتابية منذ أن عرفوا الحضارة وبدأوا في استخدامها منذ عهد بعيد .

ولاشك أن شبه القارة الهندية عاشت أهم عصورها التاريخية والحضارية منذ الفتوحات الاسلامية التي بدأت في حقيقة الأمر في نهاية عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (سنة ٥٨٩ / ٧٠٧ م) حيث غزا الجيش الاسلامي تحت قيادة الفاتح العظيم محمد بن القاسم السند وفنحها^(٣). وهكذا أصبحت هذه

(١) هذه الجزيرة تقع بالقرب من الميناء البحري في بومباي على غرب الهند .

(٢) N. G. Majumdar, Inscriptions of Bengal Vol. III, : للتفاصيل انظر الكتاب : (Rajshahi : Varendra Research Museum, 1929).

(٣) أحمد محمود السادق : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ، القاهرة

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمايز ، ١٣٣٧ هـ ، ج ١ ، ص ٥٤ - ٦٠

المنطقة في الهند جزءاً من العالم الاسلامي وبدأت تزدهر فيها الحضارة الاسلامية التي كان لها أثر عميق في الحياة الثقافية .

ومن المعروف أن المسلمين منذ فجر الاسلام كانوا يهتمون بالكتابات العربية وتطورها وازدهارها إلى أن الاسلام شجع على القراءة والكتابة ، وكان الحكام والأمراء والأغنياء المسلمون مولعين بكتابة النقوش التذكارية على المعابر ، وقد جرت العادة أيضاً في مختلف أنحاء العالم الاسلامي نصب شواهد القبور في المقابر والأضرحة وجميع هذه العادات والتقاليد حملها المسلمون معهم عند دخولهم بلاد الهند . فلا عجب إذ نجد أن أول نقش عربي عثر عليه في هذه المنطقة يرجع تاريخه إلى سنة ١٠٩٠هـ / ٧٢٧م بعد ما يقرب من عشرين سنة من فتح المسلمين للهند . وهذا النقش الذي يسجل اسم مروان بن محمد مولى أمير المؤمنين عثر عليه في خرائب مسجد جامع في بنهور على بعد ٤٠ ميلاً من كراتشي في الهند^(١) .

ولا نبالغ إذا قلنا: أن هذه اللوحة تمثل أحد النماذج الرائعة للنقش الكوفي المبكر التي عثر عليها في المشرق الاسلامي . ومن هذا النقوش نستطيع أن نستدل بأن الحكام والأمراء المسلمين في الهند كانوا يستخدمون اللوحات التذكارية منذ بداية حكمهم ، وفضلاً عن هذا ، فإن النقوش الكتابية كانت تعتبر من أهم العناصر الزخرفية للعمارة الاسلامية في تلك الفترة إذ نادراً ما كانوا يشيدون للعمارة خالية من الكتابات التذكارية واللوحات التأسيسية ، وكان الهدف من وراء ذلك تخليد اسم صاحب العمارة ومشيدها والسلطان المعاصر وكذلك تاريخ التشييد .

(١) Pares Islam Sayed Mustafizur Rahman, Islamic Calligraphy in Medieval India, (Dhaka University Press Limited, 1979) PP 22-23

ولم يمتد حكم العرب في الهند في هذه الفترة من منطقة السند وبعض الأجزاء من الفنجاب وأطرافها إلى مناطق الهند الأخرى ، والتي كانت تشكل جزءاً صغيراً من بلاد الهند على حدودها الشمالية الغربية ، وبالرغم من ازدهار العمارة والفنون في السند الإسلامية في هذه الفترة التي تحدث عنها بعض المؤرخين العرب القدامى ، فإن لدينا قليلاً من النقوش الكتابية والتحف الفنية الأخرى التي توضح لنا مستوى فن الكتابة الذي وصل اليه المسلمون في تلك الفترة . وأغلب الظن أن الفنانين المسلمين كانوا يستخدمون الخط الكوفي في هذه الفترة ٩٢-٥٨٧هـ / ٧١٠-١١٩٢م حيث أن النقش الثاني المؤرخ ٥٢٩٤/٩٠٦م والذي عثر عليه في السند أيضاً منقوش بالخط الكوفي . والجدير بالذكر أن هذه الفترة كانت فترة سيادة الخط الكوفي الذي كان يستخدم في جميع أرجاء العالم الإسلامي لأغراض شتى .

وفي نهاية هذه الفترة شملت الفتوحات الإسلامية الجديدة المناطق الشمالية للهند تحت قيادة سلاطين غزنة . وأشهرهم السلطان محمود الغزنوي الذي غزاها سبع عشرة مرة في مدة سبعة وعشرين عاماً ، فيما بين ٣٩١-٤١٧هـ / ١٠٠٠م - ١٠٢٦م ، وخضع له جزء كبير من شمال الهند وغربها .

وعلى الرغم من أن السلطان محمود قد تمكن من شن الغارات الناجحة على كثير من الأماكن الهامة والتي أدت إلى القضاء على القوات العسكرية الهندوكية . غير أنه لم يحتفظ بجميع الأراضي التي فتحها بل اكتفى بالاحتفاظ بمنطقة الفنجاب والمنطقة التي تعرف الآن بأقليم الشمال الغربي للباكستان^(١) ، وكذلك بعض أطراف هاتين المنطقتين . وكانت العاصمة لهذه السلطنة العظيمة

(١) هذه المنطقة تقع على حدود أفغانستان وعاصمتها الآن مدينة بشاور .

غزنة^(١) التي ازدهرت فيها العمارة والفنون الاسلامية حتى أنها أصبحت أشهر المدن الفنية في العالم الاسلامي . وعلى الرغم من أن سلاطين غزنة وحكامها قد تركوا لنا كثيرا من النقوش والكتابات الاثرية في عاصمتهم ، فانه لم يبق منها إلا القليل بسبب كثرة الحروب والاحداث التي مرت بها . وقد سبق أن أشرنا الى أن الخط الكوفي كانت له السيادة أيضا في سلطنة غزنة و ولاياتها في الهند في هذه الفترة . ومن النقوش الاسلامية القليلة في الهند في هذه الفترة . نقش هوتد (Hund) المؤرخ ٨٤٨٢ / ١٠٩٠ م والذي كتب بالخط الكوفي^(٢) .

أما الفترة الثانية للحكم الاسلامي في الهند (٥٨٧-٨٩٣ / ١١٩٢-١٥٢٦ م) فقد اتسعت حدود دولة المسلمين وشملت معظم البلاد تقريبا ، واتخذ الحكام والسلاطين المسلمين دلهي حاضرة لهم لأول مرة . وازدهرت العمارة والفنون تحت رعايتهم وتركوا لنا في هذه الفترة كثيرا من روائع الفنية . ومعظمهم كانوا يهتمون بفن الكتابة ويشجعون عليه . وقد عثر على نقوش عربية كثيرة ، وهي تدل على مدى اهتمامهم بفن الكتابة والخط .

وعلى الرغم من اقبال الفنانين على استخدام الخط الكوفي لفترة بسيطة في بداية الامر . فانهم اتجهوا الى كتابة خطي النسخ والثلث في العصور التالية : وفي نفس الوقت تلاحظ أن بعض الفنانين في شرق الهند خاصة في منطقة البنغال مالوا إلى استخدام نوع من الكتابات المتشابهة التي عرفت في هذه المنطقة بخط الطغرا ووصل هذا الأسلوب الى منتهى الجودة في عهد السلاطين قبل وصول المغول الى الهند .

(١) لا تزال هذه المدينة باقية في أفغانستان الحالية .

(2) Mustafizur Rahman, Islamic Calligraphy, PP 23-24

وقد ظهر بعض الأساليب الكتابية المحلية أيضا ومن بينها الخط البهارى الذى كان فى الغالب يستخدم لكتابة المصاحف فى بعض مناطق الهند. والواقع أن سلاطين الهند كانوا متحمسين لجودة الخط وزخرفته منذ بداية الأمر. واشتهر بعضهم فى فن الخط. فالسلطان ناصر الدين كان خطاطا ماهرا. ويقال أنه كان يبيع نسخ القرآن الكريم التى يكتبها بنفسه حتى يرتزق منه هو وأهله. ويذكر لنا ابن بطوطة أنه شاهد نسخة من القرآن الكريم التى نسخها السلطان ناصر الدين محمود شاه عند القاضى كمال الدين وذلك أثناء زيارة ابن بطوطة لمدينة دلهى^(١). كذلك يذكر أيضا أنه قابل خلال رحلته فى الهند خطاطا ماهرا اسمه رتن فى مدينة جانى على شاطئ نهر السند. كما أن الاسم يشير الى أن هذا الخطاط كان رجلا هندوكيا ونستطيع أن نستدل من هذا على أن غير المسلمين أيضا شاركوا فى الخطاطة الاسلامية.

وازدهرت فى هذا العصر أسواق الكتب فى دلهى والمدن الأخرى التى ساعدت على انتشار التعليم والخطاطة بصفة عامة. وفى نهاية هذه الفترة قبيل قدوم المغول الى الهند، تعرفت البلاد أيضا على خط التعليق الذى أصبح خطا رئيسيا فى نهاية القرن العاشر بعد استقرار حكم المغول.

وكان لفتح المغول لبلاد الهند تحت قيادة السلطان ظهير الدين محمد بابر شاه فى سنة ١٥٣٢/١٥٢٦م أثر كبير فى الحضارة والثقافة الهندية، فالفترة المغولية التى هى الفترة الثالثة لحكم المسلمين فى الهند — كانت لها صلات قوية بايران ووسط آسيا. وكان سلاطين هذه الفترة على دراية كبيرة بالعلوم

(١) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى: «رحلة ابن بطوطة» بيروت، دار صادر،

والفنون ، وكان لديهم ذوق فني عالى . فؤسس هذه الأسرة الامبراطور بابر كان خطاطا ماهرا و ينسب اليه ابتكار خط جديد باسم «خط بابرى» . ولكن المصادر لا تمدنا بشيء كثير عن هذا الخط . وليس لدينا نماذج له حتى نعرف قواعده أو أوصافه ، ويقال ان بابر اتخذ هذا الخط لنفسه لكتابة الخطابات السرية بينه وبين أفراد حكومته .

ويزعم المشرق الروسى الدكتور عظيم زانوبها بأن الخط البابرى كان عبارة عن حروف جديدة يقارب عددها من ٢٨ حرفا وهى تشبه إلى حد كبير الحروف العربية ولكنها كانت خالية من الاعجام ، وضم إليها أربعة أحرف زائدة تمثل الأصوات التى لم تكن موجودة فى اللغة العربية وهى حرف ژ^(١) (مثل (J) فى الفرنسية) وچ (Ch) وپ (P) وگ (G) التى توجد باللغة الفارسية^(٢) .

وكان ولي عهده الامبراطور همايون أيضا خطاطا ماهرا . ونعرف بأنه بعد عودته من ايران واسترجاع ملكه فى دلهى ، صبغت ثقافة الهند بالصبغة الفارسية حيث دعا كثيرا من الفنانين والرسامين والخطاطين الايرانيين الى الهند . وقد لقوا حفاوة بالغة فى البلاط المغولى بدلهى . وتأثرت الحياة الثقافية بهذه التطورات حتى فن الخط والكتابة حيث مال الفنانون الى استخدام خط نستعليق الذى كان أكثر الخطوط استعمالا فى ايران . على الرغم من أن الحكام المغول اهتموا اهتماما كبيرا بالرسم والتصوير ، وتوضيح المخطوطات

(١) صوت هذا الحرف يشبه صوت حرف (J) فى كلمة JOURNAL فى اللغة الفرنسية .

(2) K. A. Nizami, «The Twenty-Six Session of the International Congress of Orientalist», Islamic Culture (April 1964): P 163.

بالصور الملونة ، فانهم تركوا لنا نماذج عديدة من الكتابات الجميلة على اللوحات الحجرية التي نجدها في المقابر والأضرحة والقلاع والقصور والمساجد وغيرها من المنشآت الفخمة في هذا العصر ، فحكام هذه الأسرة الذين خلفوا الامبراطور أكبر مثل جهانكير وشاهجهان وأورنكزيب جميعهم كانوا يجيدون فن الخط مثل أجدادهم . وكان لدى الأباطرة المغول مكتبات زاخرة بالمخطوطات وكانوا يوقعون على صفحاتها افتخارا بحوزتهم لهذه المخطوطات . ولا تزال بعض هذه المخطوطات محفوظة في متاحف الهند ومتاحف العالم .

وقد اتسعت حكومة المغوليين اتساعا كبيرا حتى وصلت الى أقصى الحدود في الهند . فالمناطق البعيدة مثل البنغال التي كانت دولة مستقلة في الفترات السابقة أصبحت في أيام المغول ولاية من الولايات المغولية ، وبالرغم من أن البنغال فقدت استقلالها السياسي انها ازدهرت تحت رعاية الأباطرة المغول في شتى مجالات العلوم والفنون ، حيث إن الولاة المغول اعتنوا بها اعتناء خاصا . وقد عثر على عدد كبير من النقوش الكتابية في البنغال التي ترجع الى هذه الفترة وهي تشير الى النهضة الحضارية والثقافية التي حدثت في هذا العصر .

ولما كانت الدولة المغولية مترامية الأطراف فقد انعكس ذلك على نقوش هذه الفترة حيث تنوعت في جودتها وأساليبها وموضوعاتها ومحتوياتها من مكان الى آخر ، ومهما كان هذا الفرق والتنوع في الجودة والمحتويات ، فان دراستها تحظى بأهمية كبيرة ، فهي تساعدنا في تحديد الفترة التاريخية لبعض الدويلات والولايات البعيدة التي أهملها المؤرخون لكونها غير مهمة لديهم أو لوقوعها في مناطق بعيدة عن مركزهم بدهلي . وكثير من هذه النقوش يضم الحقائق التاريخية عن الحقب الزمنية المختلفة للحكام والوزراء والولاة والأمراء

وغيرهم. ففي النقوش التذكارية نجد تاريخ الانشاء وصاحبه مما يساعدنا على معرفة التسلسل التاريخي لهذه الفترة بطريقة لا يشوبها شائبة، والمثال على ذلك نقش السلطان محمود شاه بن حسين شاه المؤرخ ٩٣٤هـ / ١٥٢٧ م الذي عثر عليه في قرية براماتيابارى بمقاطعة بينا (Pabna) في بنغلاديش.

ومن هذا النقش نعرف أن محمود شاه خرج على الحكومة وأعلن نفسه سلطانا في وقت مبكر خلافا لما كتبه المؤرخون حيث ذكروا أنه أعلن سلطنته في سنة ٩٣٩هـ، والحقيقة أنه أعلنها في سنة ٩٣٤هـ حسب ما جاء في هذا النقش.

وفضلا عن ذلك، فإن شواهد القبور تزودنا ببعض المعلومات المؤكدة عن بعض الجوانب من حياة المتوفى وخاصة تاريخ وفاته. ونعرف من هذه النقوش أيضا كثيرا من الأسماء التي لم ترد في المستندات التاريخية والمصادر. فهي تسجل مثلا في بعض الأحيان أسماء البنائين والمشرفين على العمائر والمعماريين والمهندسين والخطاطين الذين أغفلتهم المؤلفات التاريخية. وقد تكون هذه الأسماء ذات أهمية كبيرة حيث تزودنا بمعلومات جديدة. فهي على سبيل المثال تلقى بعض الضوء على التنقلات والهجرات^(١). وكذلك نصوص هذه النقوش يمكن أن تساعدنا في التعرف على بعض النواحي اللغوية.

ويمكن أيضا أن نستنبط منها بعض المعلومات عن الأحوال الإدارية والاجتماعية والدينية في تلك الفترة حيث أن بعض هذه الأسماء قد تكون مصحوبة بالوظائف أو الحرف أو المذاهب. فهذه النقوش - كما هو معلوم -

(١) دكتور حسن الباشا. «أهمية شواهد القبور كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية». مجلة دراسة تاريخ الجزيرة العربية، مطبعة جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ، الكتاب

تشتمل على ألقاب مختلفة أو أدعية متنوعة ، فضلا عن ذلك فهي تزودنا ببعض الحقائق الهامة عن نظم الحكم ووظائف الجيش .

ومن جانب آخر ، فإن دراسة النقوش تفتح لنا مجالات جديدة للدراسة والمقارنة بالمصادر الأخرى من وثائق ومخطوطات ومسكوكات ومؤلفات تاريخية . فهي بذلك تضيف حقائق جديدة وتصحيح أخطاء شائعة حيث أن نصوصها أكثر وثوقا من المصادر الأخرى في كثير من الأحيان فالنقوش كما هو معروف تعتبر من أصح المستندات التاريخية لأنها مصدر يصعب تزويره أو تغييره ، وهي في الواقع وثائق أصلية يصعب الطعن في قيمتها ، ومصدر وثائقي لا يمكن تجاهله .

ودراسة النقوش أيضا تساعدنا في تحقيق الروابط الأسرية بين أصحاب الشواهد والأسماء الواردة في النقوش المختلفة . وكذلك دراسة الأحجار التي استخدمت في كتابة هذه النقوش قد تساعدنا في التعرف على المحاجر التي كانت تقطع منها الأحجار في العصور المختلفة^(١) .

فالبنغال التي أراضيها سهلة وخصبة ، تدر فيها الجبال والصخور . ولكن معظم نقوشها ، من حجر البازلت الأسود الذي كان يحضر بطريق نهر غنغا من محاجر راجمحل وهي منطقة جبلية تقع في شمال غرب البنغال على حدود ولاية بهار . ومن ناحية أخرى فإن هذه اللوحات الحجرية تشير إلى المهارة التي وصل إليها الفنانون في تلك العصور في قطع هذه الأحجار واستعمالها لأغراضهم الفنية مثل النحت والنقش .

ودراسة هذه النقوش أيضا توضح لنا مستوى الفن في تطور الكتابة وزخرفتها وجودتها التي وصل إليها الفنانون في تلك العصور . وهي تمدنا بأسماء

(١) دكتور حسن الباشا . أهمية شواهد القبور ، ص ٨١ - ٨٣

مشاهير الخطاطين في بعض الاحيان وأسلوبهم في الكتابة والطرق التي اتبعوها في كتابة النقوش - الامر الذي لم يعالجه المؤرخون في كتابتهم لعدم معرفتهم به - وهي أيضا تشير إلى التفاعل الحضارى الذى وقع فى تلك الفترات بين الشعوب والبلدان المختلفة . فكثرة وجود النقوش باللغة العربية فى البنغال فى العصور الاسلامية المبكرة تدل على أثر انتشار الحضارة العربية الاسلامية بين أفراد الشعب . أما فى العصر المغولى فنجد نقوشها باللغة الفارسية الامر الذى يدل على ازدياد نفوذ الثقافة الفارسية فى هذه المناطق فى هذه العصور حيث كانت الفارسية اللغة الرسمية فى عهدهم . ونستطيع أن نقول ان دراسة النقوش تعد حلقة تاريخية لها أهميتها تكمل الحلقة التاريخية . وهى تلقى الضوء على مدى تطور بعض الجوانب فى الفنون والحضارة خلال تلك الفترة ومستوى تقدمها ، والتي قد تبقى مجهولة اذا لم تدرس هذه النقوش .

